اديب ديمتري*

حلف العمالة والاستبداد والفساد يهدد المنطقة بحريق:

قراءة في حدثين مروّعين في تاريخ مصر

■ مصر كانت ولا زالت وستظل قاطرة التغيير والثورة في عالمها العربي. وقد يكون غريبا او تعسفا ان نجمع كل الاحداث الخطيرة والمثيرة التي تجتاح مصر والمنطقة في هذه الايام في حدثين تاريخيين، دنشواي وغرق العبارة «السلام 98»، لا رابط بينهما في الظاهر، وكلاهما وقع بالصدفة دون سابق تدبير. الاول وقع في مطلع القرن العشرين، والآخر تصادف ايضا في نفس العام، في مطلع القرن الواحد والعشرين. واذا كان المثل الشعبي يقول في الصدف السعيدة، وهو دائما حكمة «رب صدفة خير من الف ميعاد»، فالصدف السيئة ايضا تأتي اكثر الاحيان في نفس السياق. فالحدث الكبير، سعيدا كان او كارثيا، حتى اذا جاء بالصدفة البحتة، يأتي ثمرة للعديد قبله من الاحداث الصغيرة يلخصها ويجسدها ويتحول الحدث الى عنوان للعصر، كما يأتي نقطة تحول وارتكاز ومقدمة لتحولات كبرى، في مجرى زمان ومكان معين، وكلها يخضع لقانون زهر النرد، و«حسابات الاحتمالات» الذي تقوم عليه كازينوهات القمار العالمية.

وفي الايام الاخيرة، تتابعت وتجمعت وتراكبت جملة من الاحداث والأزمات بالغة الخطورة: ارهاصات وعلامات لا تخطئ على هزيمة الغزوة الامريكية للعراق، وسقوط مشروعها الامبريالي للهيمنة الشاملة على المنطقة، ما أثار الكثير من الذعر في صفوف الاتباع والعملاء. فالرئيس مبارك في حديثه الاخير للفضائية «العربية» وصف مطلب الجلاء عن العراق بالكارثة!! ومع تصاعد طبول الحرب على مشروع ايران النووي، حذر ملك الاردن من الهلال الشيعي، واطلق مبارك تصريحه الجهول عن ولاء الشيعة في كل مكان لايران اكثر من ولائهم لبلادهم!! ولم يفسر لنا في نفس الوقت، هل ولاء الحكام العرب المطلق لأمريكا وللسياسات الامريكية، وهم الأغلبية الغالبة من المحيط الى الخليج، هو ولاء ايضا وفي نفس الوقت لمذهبها الاصولي ومسيحيتها الصهيونية؟! وذلك بنفس منطقه الفاسد!! فلا شك ان مسعى ايران الراهن للحصول على التكنولوجيا الذرية والنووية، تكنولوجيات العصر، وبصرف النظر عن نظامها الاصولي، نظام الملالي وآيات الله، وهو شأن يخص الشعب الايراني وحده، هو حق مشروع أيا كانت النوايا والتطلعات القومية من ورائه. فالذرة والسلاح الذري منذ بدايته، حين ضربت امريكا هيروشيما وناغازاكي بلا لزوم، وكانت اليابان قد تمت هزيمتها وتسليمها من قبل، كان استعراضا للقوة وطلبا للهيمنة العالمية المنفردة والمطلقة تحسبا لما بعد الحرب، وخوفا من دور الاتحاد السوفييتي المتعاظم حينها نتيجة لدوره في الحرب. فهو سلاح هيمنة منذ البداية، ولولا توصل الاتحاد السوفييتي في ذلك الحين وبسرعة لنفس التكنولوجيا وامتلاكه القنبلة الذرية فهو الذي شل سلاح الهيمنة الامريكية وحوله الى مجرد سلاح للردع المتبادل طوال سنوات الحرب الباردة، وتبدد الحلم الامريكي حينذاك، ولذلك لم يتسامح ايزنهاور ابدا حينها مع العالمين النوويين روزنبرغ وزوجته، وأصر على اعدامهما، رغم ان جريمتهما لم تتعد الدعوة الى الاستخدام السلمي للذرة. ومن هنا ايضا يأتي اصرار امريكا على انفراد اسرائيل في المنطقة بسلاحها الذري. فهو شرط هيمنتها المطلق الراهنة، ومواجهة هذا التفرد، واخلاء المنطقة من السلاح الذري، واسلحة الدمار الشامل، وهو المطلب المشروع والضروري، لا يكون بالجهل بالتكنولوجيا النووية، وهي تكنولوجيات العصر، كما فعل السادات ونظامه الخائب، بل بالحصول على اعلى التكنولوجيات وتوظيفها من اجل السلام، ولذلك اعتبر الكاتب الوطني الكبير سلامة احمد سلامة المعركة التي تخوضها ايران بحق، انها معركة العالم الثالث كله، معركة كسر احتكار التكنولوجيات العالية التي تفرضها الامبرياليات الغربية.

وكذلك يأتي من سلة الاحداث المتراكبة والتي تشغل الاذهان حاليا، حصار شعب فلسطين وتجويعه في محاولة لتركيعه، ان لم يكن ابادته، وتصفية قضيته نهائيا، هذا فضلا عن العدوان المكثف على القطاع (300 قنبلة في اليوم)، وكله بدعوى تصلب «حماس» وعدم خضوعها للشرعية الدولية!! ويرد على هذه الفرية، البروفسور شلومو ساند، وهو لا فلسطيني ولا عربي، بل استاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل ابيب: «دولة اسرائيل لم تعترف ابدا بفلسطين داخل حدود 67، ولا هي اعترفت بالقدس (الجزء العربي من القدس) عاصمة للدولة الفلسطينية، فلماذا اذن في مثل هذه الظروف تعترف باسرائيل على هذا الحال» [لوموند 4/4].

ويأتي خضوع مبارك المخزي، وبعده الاردن للاوامر الامريكية بمقاطعة «حماس»، في محاولة لتفشيلها وازاحتها بالقوة خدمة مجانية لأمريكا واسرائيل.

واخيرا جاءت الاحداث الطائفية في الاسكندرية، اعقبتها الهجمة على القضاء والقضاة، بتحويل اثنين منهم الى لجنة الصلاحية، بتهمة عدم الخضوع لأوامر التزوير ورفض الفساد!! وقبلهم احيل زملاء لهم الى التحقيق، تلاه الاعلان عن اكتشاف تنظيم ارهابي جديد مع اقتراب موعد النظر في تجديد العمل بقانون الطوارئ الذي يحل موعده في شهر ايار (مايو)، واخيرا وليس آخرا العمل الارهابي المروع في (دهب) سيناء، وفي شم النسيم!

هذه الاحداث مجتمعة تفتح الباب واسعا على كل الاحتمالات، ويبرز منها احتمالان اساسيان في مصر والمنطقة، إما تغيير جذري شامل، او فوضى وحريق مدمر لا يبقى على شيء.

لذلك نعود الى الحدثين التاريخيين الفاصلين نستقرئهما الطالع، والتماسا لبصيص من النور في آخر النفق: والحدثان هما: دنشواي بمشانقها في مطلع القرن العشرين، والعبارة الغارقة بضحاياها الذين يربون على الالف في مطلع القرن الواحد والعشرين.

وباختصار شديد، الحادثة الاولى المروعة، والتي لا تنسى في تاريخ مصر، والتي كان لها الأثر البالغ في هذا التاريخ، وفي انبعاث الثورة الوطنية من جديد، وقد وقعت في قرية صغيرة في دلتا مصر: كتيبة من جنود الاحتلال غادرت القاهرة في طريقها برا الى الاسكندرية، وبعد وصولها الى منوف، ابلغ بعض ضباطها مأمور المركز رغبتهم في الصيد في قرية دنشواي المعروفة بكثرة حمامها.

حمامتان واقفتان على جرن مملوك لمؤذن القرية، وكان يشتغل فيه، صوب احد الضباط الانكليز بندقيته على الحمام، صاح به الشيخ الطاعن في السن، ليكون اول المشنوقين، ان يكف عن اطلاق النار خوف احتراق الجرن، فلم يعبأ الضابط واطلق النار واخطأ الهدف، اصاب زوجة المؤذن، وسقطت تتضرج في دمائها، واشتعلت النيران في الحقل، اخذ يصيح ويستغيث، واقبل الرجال والنسوة والاطفال هائجين صائحين «الخواجة قتل المرة وحرق الجرن» واحاطوا بالضابط وزملائه، وحدثت مشادات بين الضباط والجمهور، ضابط منهم اصيب في رأسه، فأخذ يجري ومعه الطبيب البيطري في الكتيبة، في عز القائظة، واصيب الضابط بضربة شمس وسقط. وما ان وصل الجنود الآخرون، ولقوا بجواره فلاحا يحاول ان يسقيه فظنوه قاتله، فأوسعوه ضربا وركلا حتى قتلوه.

ما ان وصل الخبر الى كرومر المعتمد البريطاني او «ملك مصر المتوج»، كما كان يلقب، حتى ثارت ثائرته وامر بتشكيل محكمة استثنائية على الفور، مشكلة من انكليز ومصريين متعاونين، واصدرت احكامها الجاهزة التي جاءتها من كرومر.

مجموع من حكم عليهم كان واحدا وعشرين، وتفاوتت الاحكام بين الاعدام والاشغال الشاقة المؤبدة والاشغال الشاقة والسجن مع الجلد خمسين جلدة.

نصبت المشانق التي أعدت قبل صدور الحكم، في نفس المكان الذي وقع فيه الحادث بالقرية، ونقذ الحكم بوحشية في العراء على الملأ، وشنق الاربعة امام زوجاتهم وابنائهم وبناتهم واهالي القرية، وجلد المجلودون بين كل عملية شنق واخرى. علا الصراخ والصياح والبكاء والنحيب ووصف قاسم امين الحالة النفسية يوم تنفيذ الحكم: «رأيت عند كل شخص تعاملت معه قلبا مجروحا، وزورا مخنوقا، ودهشة عصبية بادية في الايدي وفي الاصوات، كان الحزن على كل الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول».

جاء الحادث مع اول بروز وصعود للاحتجاجات والمعارضات للاحتلال والمطالبات بعودة الدستور، دستور عرابي، فانطلقت بعدها وتصاعدت، واشعلها مصطفى كامل نارا في الخارج والداخل في «اللواء» والحزب الوطني، وتحول الحدث الى نقطة فاصلة في الكفاح الوطني. اطاح الحادث بكرومر الذي استقال او اقيل سنة 1907 واستبدله الاستعمار بآخر اشد خبثا ودهاء، فعمد الى التهدئة واثارة الفتن الطائفية، وحرف الحركة الوطنية، وكانت قمة جهوده انعقاد المؤتمر القبطي في اسيوط 1911 والاسلامي ردا عليه في القاهرة، ولكن الموجة الوطنية كانت هي الاعلى، فكانت ثورة 19 الوطنية وعلمها الهلال والصليب وشعارها «الدين لله والوطن للجميع» ودستورها الديمقراطي سنة 1923.

الاستبداد هو الاستبداد من الخارج او الداخل لا فرق، وقد يكون من الداخل اشد قسوة وفظاعة، ألا نشهد في افريقيا وغير افريقيا بلادا استقلت وجلا عنها المستعمر ويقوم حكامها الجدد العملاء والاتباع بتعليمات نهب وسرقة لشعوبهم لحسابهم وحساب اسيادهم القدامى، وفي العراق صنع الامريكيون فضيحة ابو غريب، اما بعض العائدين على ظهور الطائرات والدبابات الامريكية فقد انشأوا «فرق الموت» التي تقتل على الهوية وتكلف شعبها عشرات القتى يوميا!!

الحدث الآخر جاء بعد مئة عام، وما ارخص الزمن في حياة الشعوب، روايات الناجين وحكاياتهم تقشعر لها الابدان. يروي الناجي علي... ولا اكمل اسمه حتى لا يتعرض لمكروه، وقد نجا بفعل اجادته للسباحة:

«بعد ساعة ونصف من سقوطي في الماء سمعت صوت طفل قريب مني يصرخ بشدة، وكان لابسا سترة نجاة، شديته جنبي، كان سنه حوالي 3 سنوات، وكان يرتعش، حاولت ان ادعك جسمه واضمه الى صدري ولكنه ظل يرتعش ويصرخ، فضل معاي اربع ساعات»، ويتوقف الراوي عن الحكي، ويشرد وكأنه يرى الطفل امامه وهو يستحضر المشهد، ثم يكمل: اول مرة اشوف طفل بيجنن من شدة الالم والعذاب.. كان بيقوللي وجسده وصوته يرتعشان وبعد ان عجز حتى عن الصراخ، أنا بردان قوي يا عمو عايز اطلع من المية، أنا حلو يا ماما (يخاطب امه مصر)، أنا باسمع الكلام.. خالو جاي يا عمو.. بابا انا شبعت وكلت كتير.. انا بردان قوي يا ماما بردان بردان.. يا منى تعالي العبي معاي.. تعالي جنبي يا منى».. يصمت الحاكي ثم يستطرد: الموت مش صعب.. الأصعب فيه العذاب اللي الناس شافوه.. ازداد عذاب الطفل خلال ساعات.. ضميته الى صدري ولكن جسمي كان ابرد من جسمه.. ارتعش بشدة وبدأ يتجمد زي لوح الثلج.. مات.. صرخت واجهشت في البكاء.. سيدة تطفو على وجهها وشعرها للماء.. سحبتها من شعرها.. كانت ميتة.. وتضم رضيعها الى صدرها بقوة.. اربعة اطفال وجدوا عجوزا تعوم توجهوا اليها وتعلقوا بها وغاصوا جميعا في اليم.

صيحات ما يربو على الالف وصراخهم وهم يغرقون لا يقل حرقة ولا مرارة ولا مأساوية عن صراخ اهالي المشنوقين والمجلودين في دنشواي وهم يعلقون ويجلدون امام اعينهم.

أما الطاغية فلم يجرؤ على الذهاب الى سفاجة ولاذ بمستشفى.. وبعث بجنوده لتفريق جموع الاهالي.. المنكوبين.. ورتب النظام تهريب القاتل لانهم شركاء احزان سفاجة كما احزان دنشواي وكل مصر لا تختلف. واجواء الاحتقان والغليان في ظل كرومر وجورست، صورة منها ما تشهده وتعيشه اليوم المؤتمر القبطي في اسيوط 1911 والاسلامي ردا عليه في القاهرة، ولكن الموجة الوطنية كانت هي الاعلى، فكانت ثورة 19 الوطنية وعلمها الهلال والصليب وشعارها «الدين لله والوطن للجميع» ودستورها الديمقراطي سنة 1923.

الاستبداد هو الاستبداد من الخارج او الداخل لا فرق، وقد يكون من الداخل اشد قسوة وفظاعة، ألا نشهد في افريقيا وغير افريقيا بلادا استقلت وجلا عنها المستعمر ويقوم حكامها الجدد العملاء والاتباع بتعليمات نهب وسرقة لشعوبهم لحسابهم وحساب اسيادهم القدامى، وفي العراق صنع الامريكيون فضيحة ابو غريب، اما بعض العائدين على ظهور الطائرات والدبابات الامريكية فقد انشأوا «فرق الموت» التي تقتل على الهوية وتكلف شعبها عشرات القتى يوميا!!

الحدث الآخر جاء بعد مئة عام، وما ارخص الزمن في حياة الشعوب، روايات الناجين وحكاياتهم تقشعر لها الابدان. يروي الناجي علي... ولا اكمل اسمه حتى لا يتعرض لمكروه، وقد نجا بفعل اجادته للسباحة:

«بعد ساعة ونصف من سقوطي في الماء سمعت صوت طفل قريب مني يصرخ بشدة، وكان لابسا سترة نجاة، شديته جنبي، كان سنه حوالي 3 سنوات، وكان يرتعش، حاولت ان ادعك جسمه واضمه الى صدري ولكنه ظل يرتعش ويصرخ، فضل معاي اربع ساعات»، ويتوقف الراوي عن الحكي، ويشرد وكأنه يرى الطفل امامه وهو يستحضر المشهد، ثم يكمل: اول مرة اشوف طفل بيجنن من شدة الالم والعذاب.. كان بيقوللي وجسده وصوته يرتعشان وبعد ان عجز حتى عن الصراخ، أنا بردان قوي يا عمو عايز اطلع من المية، أنا حلو يا ماما (يخاطب امه مصر)، أنا باسمع الكلام.. خالو جاي يا عمو.. بابا انا شبعت وكلت كتير.. انا بردان قوي يا ماما بردان بردان.. يا منى تعالي العبي معاي.. تعالي جنبي يا منى».. يصمت الحاكي ثم يستطرد: الموت مش صعب.. الأصعب فيه العذاب اللي الناس شافوه.. ازداد عذاب الطفل خلال ساعات.. ضميته الى صدري ولكن جسمي كان ابرد من جسمه.. ارتعش بشدة وبدأ يتجمد زي لوح الثلج.. مات.. صرخت واجهشت في البكاء.. سيدة تطفو على وجهها وشعرها للماء.. سحبتها من شعرها.. كانت ميتة.. وتضم رضيعها الى صدرها بقوة.. اربعة اطفال وجدوا عجوزا تعوم توجهوا اليها وتعلقوا بها وغاصوا جميعا في اليم.

صيحات ما يربو على الالف وصراخهم وهم يغرقون لا يقل حرقة ولا مرارة ولا مأساوية عن صراخ اهالي المشنوقين والمجلودين في دنشواي وهم يعلقون ويجلدون امام اعينهم.

أما الطاغية فلم يجرؤ على الذهاب الى سفاجة ولاذ بمستشفى.. وبعث بجنوده لتفريق جموع الاهالي.. المنكوبين.. ورتب النظام تهريب القاتل لانهم شركاء احزان سفاجة كما احزان دنشواي وكل مصر لا تختلف. واجواء الاحتقان والغليان في ظل كرومر وجورست، صورة منها ما تشهده وتعيشه اليوم التبعية والتخلف والفساد وغياب الديمقراطية يحل الشقاق والنزاعات والفتن الدينية وغير الدينية محل الوحدة الوطنية، يتفاقم الاحتقان والتوترات الاجتماعية، وتكاد هذه المعادلة ترقى الى مستوى القانون الاجتماعي. وثورة 19 اكدت هذه الحقيقة. فالمقاومة الوطنية هي التي تبني الاوطان، وهي التي تطهر النفوس وتبعث في الناس الأمل. والوطنية لا تنفصل عن الديمقراطية، كلاهما يغذي الآخر، كما لا تنفصل عن المشروع التنموي التحديثي.

يؤكد هذه الحقائق ايضا التراجع الذي حدث في اواخر العشرينات والثلاثينات مع مكائد القصر والانكليز والعملاء (الكمبرادور)، التي عطلت الدستور وسياسات المفاوضات التي لا تنتهي ودون أي نتيجة. وعندما انفجرت الأزمة الاقتصادية العالمية امتدت آثارها الى الطبقات الشعبية الفقيرة في الداخل. في هذه الاجواء تصاعدت مظاهر التعصب وبرزت الدعوات الاصولية وتشكلت جماعة الاخوان المسلمين عام 1928 والى جوارها ارتفعت شعارات تبحث عن الحاكم القوي والمستبد العادل الذي ينقذ الامة.

في ظل نظام عبد الناصر وثورة يوليو، عوّض غياب الديمقراطية، وهو الخيار الناصري الذي أدى الى الهزيمة، عوضتها وطنيته الكبيرة، ومشروعه الوطني والتنموي الطموح في التحرر والاستقلال الوطني والتنمية المستقلة، بنى مصر الصناعية المتقدمة، والتي أفاءت بثمارها على الجميع، عمالا ومتوسطين ومثقفين، تراجع التعصب، واختفى كل ما يعكر الوحدة الوطنية بعكس خليفته انور السادات تماما، بعد ان استطاع كيسنجر تجنيده لحلفه الامبريالي، ودفعه الى زيارة القدس لتغيير الحاضر النفسي! فضاع كل شيء، ضاع المشروع الوطني في التنمية والتقدم واستبدله بالانفتاح، الليبرالية الجديدة او فكر جمال الجديد بلغة النظام اليوم، فضاعت الوطنية وتأكدت التبعية، ومعها ضاعت وعود الديمقراطية ودولة المؤسسات واستبدلها بالديمقراطية ذات الانياب! أما خليفته مبارك فقد استبدل هذا كله بالخداع وبدكتاتورية المجلية في الظاهر الشرسة من الباطن.. كل ذلك اطلق شعار الفتنة من جديد.. من الزاوية الحمراء الى يومنا.

وعندما تغيب الوطنية والديمقراطية ويختفي المشروع الوطني التنموي وتحل مكانه الرأسمالية غير المنتجة المتوحشة، وسياسات الليبرالية الجديدة يحل الفقر والجاعة ومعه ينحل المجتمع ويتفكك ويتحول المجتمع الى جمع افراد والعلاقات الاجتماعية الى علاقات افراد، حرب الكل على الكل.. فيشتد الكرب بالناس، تضيق امامهم السبل، فالى من يلجأون غير الله، المسلم في جامعه والمسيحي في كنيسته، والانسان لا بد له من انتماء وهوية، فاذا غابت الهوية الوطنية والقومية حل مكانها على الفور وملأ فراغها الانتماء الديني والطائفي ان غاب الانتماء القبلي.

* كاتب من مصر يقيم في باريس

سمير جبور*

مسلسل الفتن والحروب الاهلية ينذر بالأسوأ

■ مسلسل الفتن مستمر وتمتد حلقاته من فلسطين الى العراق الى الاسكندرية والى السودان، وكأن النيران ستلتهم الاخضر واليابس في مختلف ارجاء الوطن العربي. وفي كل مرة نقول ان الوضع العربي على درجة من السوء لم يسبق لها مثيل، ثم نفاجأ بان الاسوأ أمامنا ولم نعد قادرين على التمييز بين الأسوأ والاكثر سوءا. واصبحنا نستعيذ بالله مما يخبئه لنا المستقبل.

الوطن العربي يمر الآن في مرحلة مرضية سرطانية لا تضاهيها الحالة المرضية التي مرت بها تركيا التي وصفت بـ«الرجل المريض». حالة العرب بلغت درجة من السوء لم تخطر على بال أحد حتى في اسوأ الاحلام. ونشهد الآن تحقيق «النبوءات» الصهيونية القديمة والحديثة ومفادها أن «العالم العربي مبني من برج من ورق» وأن العرب لن يتفقوا ولن يتوحدوا، وأن أعظم «ثروة استراتيجية» تمتلكها اسرائيل هي استمرار انقسام الوطن العربي لدرجة اغراقه في الحروب الاهلية والفتن الجهنمية. فما دام العرب منقسمين على بعضهم بعضا وما دامت الوحدة العربية بعيدة المنال، فالكيان الصهيوني مستمر في تنفيذ برنامجه التوسعي والمتجاهل للحقوق الفلسطينية.

مخطط تقسيم العالم العربي والغاء هويته القومية والوطنية مستمر وبنجاح.

من قال لك ان الحرب على العراق لم تحقق اهدافها!

لقد بلغت ذروة هذا النجاح باحتلال العراق وتدميره، والغاء هويته القومية والسيطرة على مقدراته. واذا كان البعض يظن بان الولايات المتحدة فشلت في العراق يكون مخطئا الا اذا بنى حسابه على الاهداف المعلنة التضليلية من وراء الحرب. واذا توقع بعض السذج ان بوش احتل العراق لينقله من «جحيم» صدام الى «جنة» رامسفيلد وولفتز ونتنياهو، عندها يحق له ان يزعم ان الحرب اخفقت في تحقيق اهدافها. ولكنني على يقين بان اهداف الحرب الخفية الحقيقية على العراق والتي رسمتها الدوائر الصهيونية وجماعات المحافظين الجدد تتحقق وتسير وفق المخطط المرسوم. اذ ان الهدف الاساسي من وراء تلك الحرب هو تدمير هذا البلد الذي يمتلك قدرات محتملة هائلة وتفتيته لكي لا تقوم له قيامة، ولكي لا يشكل في المستقبل اية قاعدة لكيان عربي قومي موحد. ومن ثم السيطرة على ثرواته ومنابع نفطه. الحرب على العراق كما ارادتها الحركة الصهيونية ناجحة: العراق يتدمر، يتفتت وتتقطع اوصاله، وتهدر طاقاته وتصادر، ويسقط ابناء شعبه بالالاف، شهداء في حرب فرضت عليهم وهم يزجون الان في اتون حرب اهلية لا يعلم احد كيف ستنتهي. وربما أن الكثيرين من العراقيين يتباكون على نظام صدام رغم قساوته مقارنة بما يعانون منه اليوم. وماذا بعد... فهل كل هذا فشل؟ هل سننتظر حتى يتقسّم العراق الى كيانات ودويلات طائفية قائمة بالفعل لكي نتيقن من تحقيق مخطط تقسيم العراق؟

والفتنة المستمرة على ارض الكنانة، وهي تنذر باشتعال حرب طائفية لا يمكن فصلها عن الحرب الطائفية في العراق والسودان. التعايش الاسلامي المسيحي في مصر تمتد جذوره الى الاف السنين والشعب المصري بطبيعته شعب مسالم طيّب القلب لا يعرف الاضغان بل يؤمن بالتعايش وحسن الجوار ولم تقع اية فتنة طائفية على امتداد تاريخ مصر الطويل الا ما كان يطفو من احداث فردية كانت تطوق وتحتوى، ومن يعرف مصر وشعبها لا يصدق أن الامور وصلت لدرجة الاعتداء على بيوت الله وعلى خليقته. فما الذي جرى؟ انها الفتنة تخطط لها وتنفذها الدوائر نفسها التي تعيث فسادا في العالم العربي. فهل يعقل أن تمتد يد الفتنة الى شعب يعيش على ارض واحدة ويشرب من منبع واحد وله تاريخ مشترك ومقومات مشتركة ورب واحد ولغة واحدة وثقافة واحدة لا تميزها الا الجوامع والكنائس وكلها بيوتات الله؟ كلا!! عقلاء مصر والوطنيون فيها وحاملو الفكر الناصري لن يسمحوا بذلك!

فلسطين الحلقة الاخطر

ولعل اخطر حلقات هذا المسلسل هو ما يدور على الارض الفلسطينية وهي البيئة الاستراتيجية الملاصقة لاسرائيل. كانت الجبهة الفلسطينية عبر مسيرة النضال متماسكة تقاوم اشرس انواع الاحتلال في تاريخ البشرية. ومنذ اكثرمن نصف قرن والشعب الفلسطيني يقاوم الاحتلال ويخوض انتفاضة تلو الاخرى.. وحاولت اسرائيل ان تكسر ظهر هذه الجبهة باكثر انواع الاسلحة والتدمير فتكا، فلم تحقق نجاحا كبيرا. فاذا كانت اسرائيل قد اخفقت في تفتيت الجبهة الفلسطينية بالسلاح فهل ستنجح في تمزيقها بالديمقراطية؟ نعم! هذا ما كانت تراهن عليه اسرائيل. ففي حين كان بعض الاوساط الصهيونية والامريكية تطالب السلطة الفلسطينية باللجوء الى العملية الديمقراطية باجراء انتخابات لم تعرقلها اسرائيل ليس احتراما للديمقراطية بل لانها كانت تعرف النتائج مسبقا ومتيقنة ان حماس ستكون هي الفائزة في تلك الانتخابات ولم تنقص الدلائل على ذلك. ففي الحساب الاسرائيلي ان وجود حماس في السلطة يحقق عدة أهداف تسعى اسرائيل الى تحقيقها وتراهن عليها:

اولا: لقد اصبح من الاسهل أن تزعم اسرائيل ـ تهربا من السلام ـ انه ليس هناك شريك فلسطيني للتفاوض معه بعد تسلم حماس السلطة التنفيذية على اعتبار انها منظمة «ارهابية»، «لا تعترف باسرائيل ولا بالاتفاقات الموقعة معها». في حين كان من الاصعب عليها ان تدعي ذلك على السيد محمود عباس وصحبه الذين لم يتركوا «حماة سلام» الا وطيروها نحو دولة الاحتلال. وارتسمت صورة ابو مازن في جميع انحاء العالم بانه رجل سلام لكن الحركة الصهيونية عملت على تشويه هذه الصورة باتهامه بالضعف وانعدام الحيلة..الخ.

ثانيا: كانت اسرائيل تعلم علم اليقين ان اغراق حماس في العمل السياسي هو وسيلة سهلة لتجريدها من اوراقها اومكاسبها على صعيد العمل العسكري. والاحتلال يعلم علم اليقين أن طريق حماس الى الحلبة السياسية والدولية والعربية ليس مفروشا بالورود.

فكان من السهل على اسرائيل ان تحاصر حماس دوليا وتقطع عنها مصادر الدعم لتجويع الشعب الفلسطيني لينزع ثقته بقدرة حماس على ممارسة دورها. ناهيك ان اسرائيل تضمن ان معظم الدول العربية لن تسلم بسلطة حماس.

ثالثا: راهنت اسرائيل على أن وصول حماس الى السلطة لا بد وان يؤول في النهاية الى اقتتال يصل حد الحرب الاهلية. وهذا ما نشاهد بداياته الآن. ومرة اخرى، ففي الحسابات الاسرائيلية، فان الفصائل الفلسطينية الاخرى لن تقبل منطلقات حماس ولن تتنازل عن دورها التاريخي بسهولة. واسرائيل تترقب ما يجري على الساحة الفلسطينية وتراهن على اشتعالها.

ولهذا السبب لم ترد على العملية الانتحارية الاخيرة في تل ابيب. ففي تقديرها ان الاقتتال الفلسطيني ـ الفلسطيني اكثر جدوى من شن عملية عسكرية تلقى استنكارا دوليا واسعا ويذهب ضحيتها ابرياء. ان مظاهر الانقسام ومشاهد الاحتكاكات المسلحة في الشارع الفلسطيني تبعث على الحزن والاسى وتحديات الفلسطينيين لبعضهم بعضا ليس لها مبرر. انهم لا يتقاتلون بالعصي والحجارة بل يتراشقون بـ«صواريخ الياسين» والقنابل اليدوية. يا للعار. وخسئت تلك النفوس التي تحرك الغرائز وتحرض على الاقتتال. لست أدري كم سيبقى لنا من انصار في العالم عندما يشاهدون هذه المناظر المقززة؟ لست ادري اذا كان سيبقى لنا من يقول: ايها الفلسطينيون انكم تستحقون ان تكون لكم دولة، انكم جديرون بالحرية والاستقلال. ايها المتبارزون و«الردّاحون» ايها المتقاتلون احترموا ارواح شهداء فلسطين الابرار الذين سقطوا على مذبح التحرير، وارواح الانصار الذين ضحوا بالغالي والنفيس لكي يحموا أطفال فلسطين بصدورهم ومنهم من قضى تحت جنازير الجرافات الاسرائيلية.

الجميع وقعوا في الفخ الاسرائيلي الذي احكم نصبه بذكاء خارق. المشهد الفلسطيني الحالي لم يسبق له مثيل. افرازات اوسلو مستمرة. والطامة الكبرى أن الذين جلبوا لنا ويلات اوسلو لم يفعلوا شيئا لوقف مدّها. والذين يعارضون اوسلو لم يقدموا لنا بديلا افضل.

وفي هذه المرحلة الحرجة من الحملة الاسرائيلية لتصفية القضية الفلسطينية، وبينما يعمل المحتل على تشكيل حكومة موسعة تحظى بتأييد الاغلبية البرلمانية لتمرير مشاريع اولمرت وترسيم الحدود النهائية وتكريس الاحتلال والقفز على حقوق الشعب الفلسطيني، تتقاتل الزعامات الفلسطينية وكأنها تتنافس على حكم الارض المحررة.

ان هذه المرحلة تتطلب من القيادات الفلسطينية كافة قراءة الخريطة الدولية ورصد التحركات الاسرائيلية. ويبدو أن حكومة حماس التي تسلمت السلطة بعملية ديمقراطية نزيهة لم تهيىء نفسها للسير في حقول الالغام. ولم تكن واعية بما فيه الكفاية لما ينتظرها محليا وعربيا ودوليا. وغالب الظن انه كان من الاجدى لها حصر نشاطها في مجال المقاومة وترشيد اساليبها واستراتيجيتها. القيادات الفلسطينية بحاجة الى المزيد من الترقب والخيال وبعد النظر لمواجهة الاهوال بأقل قدر ممكن من الاضرار. والا فان النيران ستلتهم الجميع وستكون فلسطين هي الضحية.

* كاتب من فلسطين يقيم في كندا

د. حسين شعبان*

عفوية خالد مشعل ومكر النظام السوري

■ قطع خطاب خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس في دمشق يوم 2006/04/21 الشك باليقين وكشف حقيقة قيادة حماس في الخارج ونعني دمشق بالدرجة الاولى. فالخطاب نطق جملة وتفصيلاً باحلام الرئيس حافظ الاسد وورثته الذين اصبحوا اكثر تشبثاً بالورقة الفلسطينية بعد هزيمتهم المخزية واندحار جيشهم ومخابراتهم المذل في لبنان.

الاجهزة الاعلامية لحركة حماس ومواقعها على الانترنت تجاهلت النص الكامل لخطاب السيد مشعل مكتفية بنشر مقتطفات مختارة من الخطاب، اما السيد مشعل فقد اجهد نفسه بعد ان «ذهبت السكرة وعادت الفكرة» في البحث عن عذر اقبح من ذنب حين قال «البعض اخذ اقوالي وتصريحاتي في مهرجان امس (الجمعة) على غير وجهها ووظفها في اثارة اجواء احتقان في الساحة الفلسطينية».واضاف انه يكن «كل الاحترام لحركة فتح ولكل الفصائل. نحن لا نسيء الى احد لكن الاخطاء ينبغي ان تصوب ولا ينبغي ان تظلم الحكومة الفلسطينية ويكفي ما نتعرض له من حصار اميركي واسرائيلي». (نقلا عن يومية «الحياة الجديدة» الفلسطينية 2006/04/23).

وقائع خطاب دمشق الاخير، الذي نقل بالصوت والصورة من على فضائيات عربية وجدت فيه سبقاً صحافياً فراحت تعيده وتكرره وتحلله، يضعف جميع تبريرات السيد مشعل. واذا ابدى المواطن الفلسطيني قدراً من التفهم لهذه التبريرات ويبقى سؤال على قدر من الاهمية وماذا عن خطاب السيد مشعل في «مؤتمر القدس» في العاصمة الايرانية طهران قبل ايام خلت؟ لماذا انسحب من قاعة المؤتمر عدد مرموق من الشخصيات الفلسطينية واللبنانية وحتى العربية اثناء القاء مشعل لكلمته التي تضمنت تهجماً على م.ت.ف. والرئيس الفلسطيني؟

الادلة تقول ان خطبة مشعل جاءت لتطعن في الصميم دعوات ومبادرات للحوار صدرت عن الرئيس اسماعيل هنية، ورئيس المجلس التشريعي عزيز دويك والقائد مروان البرغوثي والتي التقت واتفقت جميعها على توحيد الجهود لمواجهة الضغوط الدولية الجائرة والعربية المتواطئة، حيث كان وزير الخارجية الفلسطيني الشيخ محمود الزهار قد استقبل بكثير من الفتور ومن التجاهل في القاهرة والرياض.

مرة اخرى خيب الرئيس محمود عباس وقيادة حركة فتح كيد المصطادين في الماء العكر حين ابدوا قدراً كبيراً من الحكمة والتسامح والاقتدار. كان بامكان حركة فتح ومؤيديها الذين نزلوا الى شوارع غزة والضفة الغربية احتجاجاً على خطاب مشعل اضافة متاعب جديدة الى حكومة السيد اسماعيل هنية لكن ذلك لم يحدث. رد المسؤولين في فتح والرئاسة كان منسجماً وموقف المثقفين والمفكرين (انظر صحف «الحياة الجديدة»، «الايام» و«القدس» يوم 21، 22 و23 نيسان 2006) في فلسطين اتسم بالحكمة والعقلانية المسؤولة.

الرئيس محمود عباس بادر الى الدعوة الى عقد لقاء مع رئيس حكومته وكذلك فعلت قيادة فتح التي بادرت الى لقاء قيادة حركة حماس للتشاور وتجاوز الحدث واعتباره غمامة صيف عابرة. وهنا لا بد من الاشارة الى ان قيادة حركة حماس في فلسطين امتلكت الشجاعة الكافية في معالجة هذا الموضوع، هذا مع العلم ان لكل من حماس وحركة فتح من المؤيدين والانصار القادرين على احراق البيت الفلسطيني عن آخره او زج الشعب الفلسطيني في اتون حرب اهلية مهلكة لا يسلم منها احد.

ولكن الى متى يتحمل اهل فلسطين عفوية وسذاجة بعض الشخصيات الفلسطينية في الخارج والتي كان خطابا الاستاذ مشعل في دمشق وطهران نموذجاً صارخاً عنها، في حين ينظم الشيخ محمد نزال من بيروت حملات قدح وذم محمومة من على شاشات الفضائيات العربية ضد شخصيات مرموقة في م.ت.ف.

ما اقدمت عليه حكومة دمشق قبل وبعد خطاب خالد مشعل من كرم غير معهود لناحية رفع مستوى التمثيل الفلسطيني في دمشق، واستقبال الفلسطينيين المطرودين من العراق يكشف حقيقة نوايا وخطط هذه الحكومة التي نعيب عليها في ما نعيب خرقها الفاضح والصارخ لابسط حقوق الانسان ومعاداة قيم الديمقراطية. ما الذي تريده حكومة دمشق حقاً من الفلسطينيين ؟ وهل هي تحترم خيارات الشعب الفلسطيني؟

تاريخ حكومات الاسدين الاول والثاني من سبعينات القرن الماضي وحتى اللحظة الراهنة تؤكد ان حياكة الفتن واشعال الحروب والتخريب هي الجزء المحرك والاكثر حيوية في استراتيجيتها، نماذج لبنان وفلسطين وكذلك في العراق حاضرة وتفقأ العيون. واظهرت هذه الحكومات سرا فريدا في شم رائحة ضعاف النفوس والسيطرة على عقولهم. خلال ثلاثة عقود من الزمن تار